القصة القصيرة بين الواقعية والرمز

نقد : د. عبد القادر القط

يد واحدة لكمال مرسى

تهدف القصة الى بيان معنى انسانى كبير عبرت عنه بصراحة فى النهاية من خلال حديث المدرس لنفسه : **صحيح يا بنات .. ارادة الجموع لا يمكن أن تزيف** . وقد تحقق هذا المعنى فى صورة عواطف انسانية نبيلة لا يخدعها الزيف عن القيمة الحقيقية للناس والاشياء عواطف تقوم على المحبة الصادقة لا يخدعها الزيف عن القيمة الحقيقية للناس والأشياء ، عواطف تقوم على المحبة الصادقة ولا تجرى وراء المظهر الخلاب والادعاء الفارغ . ولا شك أن مثل هذا الموضوع قد عولج من قبل فى عشرات القصص على اختلاف فى الشخصيات والأحداث . لذلك ينبغى أن نوجه اهتمامنا الأول فى الحكم على القصة الى قيمتها الفنية من حيث اختيار الحدث ورسم الشخصية وعملية السرد وغير ذلك من العناصر الفنية الأخرى . وفى رأيى أن الكاتب لم يوفق توفيقا كبيرا فى ابراز هذا المعنى الانسانى الذى رمى اليه فى صورة فنية ناجحة لأنه لم يقدم لنا جانبى الأصالة والزيف (متمثلين فى مدرس اللغة العربية وناظرة المدرسة) فى أبعادهما الحقيقية الكافية لكى نفهم حقيقة العلاقة بينهما ونتعاطف مع أحدهما وننفر من الآخر . فنحن لا ندرى عن مدرس اللغة العربية الا أنه طيب مخلص فى عمله ،

ولا ندرى عن طبيعة الناظرة شيئا ولا نفهم لماذا لم تختر ذلك المدرس الطيب مع أن كل تلاميذه ـ وهو نفسه ـ كانوا على يقين من أنه سيبال الجائزة · ومما أكد « عمومية » الصورة فى القصة ان صح هذا التعبير ، أن الكاتب قد جرى على المألوف ـ فى القصص والأفلام والمسرحيات ـ من اختيار مدرس اللغة العربية بالذات ليكون رمزا للطيبة ، واتبع فى رسمه ـ حتى فى مظهره الخارجى ـ ما درج عليه الكتاب من تناول هذه الشخصية من قبل · فهو يرتدى « حلته القديمة التى تعود أن يرتديها فى الأيام العادية ·· كان جيبها الأيمن الخارجى منتفخا دائما كأنما أصابه ورم مزمن · وكان هذا الانتفاخ فى بادىء الأمر موضع تساؤل البنات لكنهن أدركن فيما بعد أن سبب الورم فى جيب الاستاذ عاشور ، منديل أحمر كبير فى حجم قوطة السفرة يستعمله فى مسح التحتة كلما اختفت المسحة فى حصته حتى لا يضيع وقت الحصة فى البحث عنها ، كما ترغب فى ذلك بعض البنات الشقيات · » فهذه الصورة الكاريكاتورية وهذا السلوك الطريف ، وعاشور ـ هذا الاسم ذو الوقع الخاص ، كل ذلك يذكرنا بمدرس اللغة العربية الزرى الهيئة البادى الغفلة المتخلف عن روح العصر ، ولكنه مع ذلك ينطوى على قلب ملىء بالخير والاخلاص والمحبة · والصورة التى رسمها الكاتب « **للست الناظرة** » لا تقل ميلا الى الكاريكاتور عن صورة الأستاذ عاشور ـ فهى الشخصية المستبدة المسيطرة التى تتسم بشىء غير قليل من الغلظة والخضوع للهوى الشخصى · فهكذا يصفها المؤلف « وأمسكت بمكبر الصوت من عنقه بيدها الغليظة برهة ! ايذانا بأنها ستبدأ كلماتها ، بينما راحت عيناها تطوفان بأرجاء الفناء بين رعيتها الصغيرة ··· وتنحنحت « **الست الناظرة** » وهى تبعد فمها عن الميكروفون لكنه ضخم ، **بالرغم منها ـ نحنحتها فبدت كخوار ثور كبير ···** » فهل حتم أن تكون دائما يد « الست الناظرة » غليظة وصوتها أخش كخوار ثور ـ ، وثور كبير ! ·

لهذا لم نستطع ـ كما قلت ـ أن نتعاطف تماما مع الأستاذ عاشور وطالباته المتحمسات · ومع أن النقاد طالما نبهوا الى مبدأ يعد من أوليات الفن بوجه عام هو وجوب الابتعاد عن التلقين والنزعة التعليمية الصريحة ، فان الكاتب قد وقع فى الخطأ المألوف حين أصر على أن ينبئنا بما حدث به مدرس التربية الوطنية نفسه : صحيح **يا بنات ·· ارادة البنوع لا يمكن أن تزيف** · مع أن معنى القصة واضح لا يحتاج الى نص أو تفسير · وكانت تكفى النهاية التى تصور مزيدا من طيبة الاستاذ عاشور وهو قلق على مصير الفتاة التى قدمت اليه الهدية باسم زميلاتها مطمئنا نفسه بقوله : **يعنى حتعمل ايه ، حضرة النـاظرة · للبنت الطويلة بتاعة الكرة ؟ دول البنـات كلهم يد واحدة جابوا الهدية ·**

الآخرون ·· لمحمد حسن عبد الله

تتعقد الحياة فى المدن الكبرى وتتشابك حياة الفرد ومصالحه فى ظل الحضارة الحديثة ومع حياة الآخرين ومصالحهم ازداد احساس الفرد بوجود « الآخرين » ووطئتهم على عواطفه وأفكاره وسلوكه · لذلك استأثر موضوع « **الآخرين** » **اهتمام كثير من** الكتاب وبخاصة فى الأدب الوجودى · وقصتنا هذه تصور كيف يندفع الفرد أحيانا

الى سلوك غير منطقي يتعارض مع حاجاته وظروفه بدافع من احساسه بالآخرين . فدياب عالم ـ الكاتب الصغير ـ يشق على نفسه ويكلفها فوق ما تطيق فيركب الأتوبيس دائما في الدرجة الاولى على أمل أن يراه يوما المحاسب الثري الذي يعمل عنده فيعلم أنه ليس هين الشأن كما لو كان يعتقد ذلك المحـــاسب . وهو تحت وطأة احساسه بالآخرين يدخل في منافسة غير متكافئة مع شابين أنيقين حول فتاة جميلة كانت تقف في زحمة الأتوبيس . ثم هو في النهاية يرد الى محصل الأتوبيس ما في جيبه من قروش قليلة كان في أشد الحاجة اليها ليرد عن نفسه احساسه الأليم بالجوع ، وهو يعلم حق العلم أنها قروشه هو ، ولكنه لم يطق أن يشك « **الآخرون** » في أمره وأنه اختلس هذه القروش من المحصل بغير حق ، وآثر أن يردها بهذه الطريقة المسرحية أيطفر من « **الآخرين** » بشيء من التقدير ، غير أن المحصل لم يرد على أن تناول القروش في اهمال وهو يقول « **مش قلت لك .. يا أخ ! .** »

وحين تصبح الشخصية مدارا لفكرة عامة كفكرة « **الآخرين** » فلا يمكن أن نكتفي من ملامحها النفسية بأيسر اليسير بل لابد أن نعلم الكثير عن هذه الملامح أو على الأقل عما يتصل منها بموضوع الآخرين ويزيد فهمنا له وضوحا وعمقا . ولكن يبدو أن الكاتب قد اختار لشخصيته أن تكون شخصية « دعية » أكثر منها « **مأزومة** » لذلك سماها منذ البداية دياب عالم وأشار اليها أحيانا بقوله « **ابن عالم** » ليؤكد علاقة الاسم بالفارس الهلالي المشهور وليدل على تشبث صاحبها بفروسية زائفة قائمة على المظهر أكثر من قيامها على شعور حقيقي وحاجة ملحة . وهكذا لا نرى الخلاف بين الاستاذ دياب والمحاسب الذي يعمل لديه على أجر يكفل له حياة كريمة أو على طبيعة عمل تتيح له بعض الراحة وانما يختلفان حول أجر ركوب الاستاذ دياب ، أيكون بالدرجة الأولى أم بالثانية . وحين يفشل في تسوية الأمر مع المحاسب يلجأ الى طريقة غريبة تتفق مع صورة الادعاء التي رسمها له الكاتب فتراه يركب الأتوبيس دائما بالدرجة الأولى على أمل أن يراه المحاسب يوما ما . ولاشك أن شخصا كهذا في مظهره المتواضع وفقره الشديد لا يمكن أن يفكر في تلك المنافسة الغرامية التي اشترك فيها . ومع ذلك فلو تحينا المنطق حانبا فسنرى **أن اختيار الكاتب لهذا الموضوع العاطفي بما فيه من مراهقة وسطحية** من جميع من اشتركوا فيه لا يجعل الشعور « بالآخرين » نابعا من أزمة حقيقية بل يجعله امتدادا لهذا الشعور الزائف الذي تمثل منذ البداية في الخلاف حول أجرة الأتوبيس بين الأستاذ دياب والمحاسب . وقد زاد من احساسنا بسطحية ذلك الموضوع العاطفي بعض تعبيرات استخدمها الكاتب ، كتعبيره عن أحد الشابين « **بالكرافتة الحمراء** » وعن الآخر « **بالأزرار الفاقعة** » وبقوله : الا أن الأزرار الفاقعة وسوست لنفسها « لو أن سوق الكانتو تملكته نوبة تظاهر بأنه حتتلمان فستكون داهية سوداء ، سيبتسم وكأنه اكتشف وجود الحسناء فجأة ، ثم يقف في تأديب مفتعل لتجلس مكانه ولتقف امامها يحتمي بسيقانه العجفاء سيقانها المليئة البضة ، ويسرق كنوز الصدر الأعظم بعيونه الباهتة » .

ثم تأتي المفاجأة الكبرى حين يتخلى الاستاذ دياب عن قروشه للكمسارى بعد إن كان قد أخذها منه ووضعها في جيبه وبعد أن اشتد به الجوع ، لا لشيء الا ليدفع

عن نفسه ظن السوء من « الآخرين » وليس هذا الشعور غريبا فى ذاته ، فالفتى كما يقول الشاعر «يلاقى المنايا» كالحات « ولا يلاقى الهوانا » ولكنه غريبا بالنسبة الى هذه الشخصية الدعية التى لم يصور لنا الكاتب أزمتها النفسية الحقيقية فى مظاهر أكثر صدقا وواقعية · **لهذا ظلت الشخصية حتى النهاية غير قادرة على تحمل المعنى الكبير الذى أراد الكاتب أن يحملها اياه استحالت القصة بوحى من عبارة الكمسارى الأخيرة « مش قلت لك يا أخ ·· » الى دعابة كبيرة ! ·**

أصابع الشعر لمحمد حافظ رجب

لا شك أن القارىء يحس بأن فى أسلوب هذه القصة شيئا غير مألوف · فهو لا يجرى على النسق المنطقى المتتابع الواضح كما فى سائر القصص بل يعتمد على شىء غير قليل من الغموض ، يكون موحيا شفافا فى كثير من الأحيان ، ويكون أحيانا أخرى مغلقا يصيب القارىء بكثير من الحيرة · ولعل خير مثال على هذا اللون الثانى من الغموض مطلع القصة نفسها ـ وأكاد أقول القصيدة ! ـ « **استلقت « هنا » فوق وسادة المخمل البنفسجى داخل علبة التواليت ووضعت الغطاء فوقها ·· تركت وراءها الباب مواربا عن قصد ليجذب الرجل ، وتثاءبت ·· تثاءبت ليس من أجل النوم ··** انها تطرده · بعد لحظات تسلل وراءها « الشعر » ، مدت « هنا » أصابعها ، عانقته ، لفها الشعر ، غطاها · صارت سجينة · ثامت الأصابع فى العلبة متعانقة ، لم يحفل الاثنان باصبح الروج وعلبة البودرة وزجاجة العطر والمرآة الصغيرة ، **مخلوقات علبة التواليت** ، مع أنها اشتركت فى اعداد « **هنا** » للحدث · فلا يكاد القارىء يدرى كيف استلقت هنا داخل علبة التواليت ولا ما تكون أو من تكون هنا هذه ، ولا ما هو أو من هو هذا الشعر الذى يعانقها ويلتف حولها فتصير سجينة · على أن هذا الغموض لا يلبث أن يتضح شيئا فشيئا حين نتقدم فى قراءة القصة · ولكن القصة مع ذلك تتطلب جهدا خاصا من القارىء حتى بعد قراءتها للمرة الأولى وأغلب الظن أنه لابد أن يعيد قراءتها ليدرك مثلا أن فيها بدءا من النهاية ، من حيث سقطت هنا مع «**السماك**» بعد أن انهار زوجها اثر مصرع ولده تحت عجلات الترام ، ثم عودة الى بداية القصة حيث كانت هنا سعيدة مع زوجها رغم قسوة الحياة عليهما معا · **والقصة بهذا الأسلوب تكاد تشبه كما قلت قصيدة من الشعر** يقاس توفيق الكاتب فيها بمقدار نجاحه فى تجسيم المشاعر والأفكار والاوهام فى صور شعرية موحية تكسبها دلالات حية جديدة تخرجها عن طبيعة موضوعها المألوف الى جو من المأساة الانسانية العامة · والحق أن روح المأساة لا تنقص القصة ، فرغم الظروف القاسية التى كان يعيش فيها الزوجان، فان المؤلف لم يلق مسئولية انهيار الروح على هذه الظروف وانما جاءت الكارثة من قدر مفاجىء لا حيلة فيه جعلت الروح يذهل فيكاد يتصور العالم كله جمجمة يتمثل فيها معنى الفناء الشامل الحتمى ! « يخرج من جوانه جمجمة ! هل ترين هذه يازوجتى العزيزة ؟ رأسى ورأسك هنا ·· رأسى ورأسك مثلها ·· **انا وأنت جمجمة** · عثرت على رأس حربى فى داخل الجمجمة · العالم فى داخلها · ما أغرب ذلك يا زوجتى العزيزة العالم جمجمة ؟ ويحمل كوم العظم فوق كتفيه ويغادر الحجرة ·

والحق أن الكاتب قد وفق الى رسم كثير من الصور الشعرية البارعة وبخاصة في تصويره للتحول النفسي عند الزوج بعد مصرع ولده ٠

على أن الكاتب في أمثال هذه القصص قد يتعرض لمزالق فنية خطيرة تفسد عليه عمله ٠ فقد يفشل مثلا في خلق هذا الجو الشعري الموحي الذي يغوص القصة عن موضوعها العادي ، وقد يتساوق وراء العبارات الشعرية أكثر مما ينبغي فينقطع سياق القصة ويغلب عليها طابع الشعرية أكثر من طابع القصة ٠ وقد يحمل القارىء نفسه على أمثال هذه القصص اذا لم يبذل من الجهد في قراءتها ما بذل الكاتب من جهد في كتابتها ٠ واعتقد أنه رغم بعض التعبيرات التي تصيب القارىء بشيء من القلق في هذه القصة فان كاتبها قد وفق فيها الى حد كبير ٠ **وهذا اتجاه ـ اذا خلا من المبالغة وفكر كاتبه دائما في مدى قدرة القارىء على متابعته وادراك تجربته ـ جدير بالتشجيع فقد يخلص القصة القصيرة عندنا مما أصابتها به الواقعية من نثرية مسرفة باعدت بينها وبين الجمال في التعبير والتصوير ٠**

لحظة التنوير لزهير البيومي

لعل القارىء كان يستطيع أن يتقبل هذه النظرة « المتعالية » من شخصية «المجرم» في القصة لو أن هذا المجرم كان على قدر واسع من الثقافة أو التجربة الانسانية الرحيبة ، ولعل القارىء ايضا كان يستطيع ان يشعل نفسه « بلحظة التنوير » تلك التي تصنع نهاية لقصة هذه الشخصية ، لو أن الشخصية كانت متميزة عن سائر من يدخلون السجون ويخرجون منها ويعودون اليها بوضع اجتماعي أو نفسي خاص يجعل من حياتها مأساة متفردة ٠ ولكنه شاب دخل السجن في جريمة قتل غريمة من أجل زميلة له في الجامعة ، ثم انحرف كأي مجرم عادي فمارس سرقة السيارات بعد خروجه ولما يقض نصف المدة ٠ وكان جديرا بثقافته وبالظروف التي حفت عنه خمس سنوات من السجن أن تدفعه الى سلوك مختلف ٠ فاذا كان قد قرر بعد ذلك أن يكتب قصته **فليس من المقبول أن نتعاطف مع موقفه المتعالي من أساتذته في الجامعة ولا من زميله** السابق الذي يعمل في الصحافة ولا مع بحثه عن نهاية او « **لحظة تنوير** » لقصة حياته العادية في مجال الاجرام والانحراف ٠ **أما نهاية القصة فمفاجىء غير مفهوم ليس فيها** « لحظة تنوير » ! ٠

وبعد فلعلني ملت في هذا العرض الى جانب النقد أكثر مما ينبغي ولكن دفعني ذلك أن هؤلاء الكتاب من الشباب الذين نرجو على يديهم كثيرا من الخير ، وأن واجب الناقد نحوهم أن يواجههم بما يعتقد أنه الحق لعلهم أن ينتفعوا به ٠ **ومع ذلك فقد يختلف الناس في تقدير الأعمال الأدبية ، وما ادعي أن أحكامي على هذه القصص تمثل كل وجهات النظر التي يمكن أن نتحدث عنها ٠**

د ٠ عبد القادر القط